الإمام
أحمد بن حنبل

- كان فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين

الإمام أحمد بن حنبل

ولد أحمد بن حنبل فى شهر ربيع الأول ١٦٤هـ ، ووفاته سنة ٢٤١ هـ ، أى أنه عَمَّر نحو سبع وسبعين سنة.

ولد ببغداد وكان والده أحد قادة العباسيين بها، ولكنه رحل عن دنيانا ولم يبلغ الثلاثين من عمره، ونشأ أحمد بن حنبل يتيما، فقامت أمه على رعايته، وكانت الأم من قبيلة بنى شيبان، وقررت ألا تتزوج وتتفرغ لتربية ابنها أحمد، وحرصت على أن يحفظ القرآن الكريم، وعلوم اللغة، وفى نفس الوقت كانت تقص عليه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين.

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ستة عشر سنة وروى عن كبار العلماء والمحدثين فى مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة كما سمع من سفيان بن عينيه وإبراهيم بن سعد، والإمام الشافعى.

وكان يقول:

- أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وكان يسمع لمشايخه وهو صامت فإذا سئل عن هذا الصمت كان رده:

- بأن الله خلق للإنسان لسانا واحدا، وأذنين ليسمع أكثر مما يتكلم.

وكان عندما يجلس فى المسجد ليحدث الناس يتجمعون إليه من صلاة العصر إلى أن يحين آذان المغرب.

وقد روى عنه البغوى ومسلم والبخارى وابن أبى الدنيا كما كان من أصحاب الإمام الشافعى، وقد قال عنه الشافعى:

- خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل.

- وقد سأله أحدهم وهو يرى كثرة ترحاله للبحث عن الأحاديث النبوية مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة إلى متى؟

قال الإمام : مع المحبرة إلى المقبرة.

فقد كان يدون ما يسمع من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يحفظه.

وحول فقهه يرى الشيخ محمد أبو زهرة أنه أبو الفقه، ويقول:

كان أحمد فى جمعه للآثار ، يجمع الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ويجمع أعمال الرسول وتقريراته ، أى ما يقر أصحابه عليه، ويجمع أجل هذا أقوال بعض التابعين ، وفتاويهم، إذا كانوا قد بلغوا منزلة من الفتوى يكونون بها حجة يؤخذ عنهم.

لقد ابتدأ حياته طالباً للفقه، ثم كان مع تفرغه للحديث غير منقطع عن الفقه.. بل كان يقتبس من فقهاء عصره ما يرى فيه علم لم يكن يعلمه، كما أخذ عن الشافعى عند التقائه به بمكة سنة ١٨٧هـ ، ثم عند ملازمته له فى الفترة التى قاضاها هنا ببغداد.

وإذا كان قد أخذ عن الشافعى منهاجه الذى سنه ليلتزمه المجتهد فى طلب أحكام الفروع من الكتاب والسنة، وهو ما سمى علم الأصول، فقد كان هو عنده المادة الفقهية التى يستطيع أن يغوص فيها ملتزماً المنهاج الذى سنه الشافعى مضيفاً إليه ما انتهى هو من دراساته إليه، وأن هذه المادة هى ما جمعه من أحاديث وفتاوى.

فقد كانت معيناً أمده بفقه أثرى قويم، وقد استنبط بالبناء عليه ، وخرجه تخريجاً حسناً ، وبهذا التقى عنده علم الحديث والآثار مع الفقه، بل أنه وهو ينقل السنة كان ينقل أعماق الفقه ومصدره.

ولذا جاء فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين أنه استقى منهم.. حتى لقد ادعى ابن جرير الطبرى أنه كان محدثاً ولم يكن فقيهاً.

ولم يعده ابن قتيبة فى ضمن الفقهاء ، بل عده فى ضمن المحدثين، وذلك لما سبق من تشابه فقهه مع فقه أهل السنة والآثار ، وقربه منهم ولاحترامه آراء الصحـــابة حتى أنه كان لا يرجح بعضها على بعض. فإذا رأى رأيين لاثنين من

الصحابـــة أو ثلاثة اعتبر آراءهم جميعاً أوجها فى مذهبه، أو آراء فيه إلا إذا أيد أحد الآراء بحديث للنبى أو عمل له فإنه يختاره دون سواه، لأن رأى الصحابى مهما يكن مقامه مؤخر عن قول النبى ﷺ.

وكل من تحدث عن الإمام أحمد تحدث عن ورعه وتقواه وحبه للخير، وعطفه على الفقراء.. وأنه كان لا يحب أن يعطيه أحد شيئاً حتى الخلفاء، كان يحب أن يكـسب قوته من عمل يده، مهما كان هذا العمل، حتى أنه عندما ذهب إلى اليمن. ومكث سنتين للعلم على يد المحدث الشيخ عبدالرازق ، رفض عطاياه، وعاش حياة بالغة الشقاء ، بل كان يؤجر نفسه ليعمل حمالا، ولا يمد يده لأحد.. ولو حتى بالاقتراض.. كان عزيز النفس.. صبورا .. لا يأبه بأى عمل إذا كان شريفا مهما كان هذا العمل متواضعاً.

ولم يتزوج الإمام إلا بعد سن الأربعين حتى يتفرغ للعلم.

كما أنه كتب «المسند» وصنفه سنة ١٨٠هـ، وهو مائة وعشرون ألف حديث، تكلم فيه عن الناسخ والمنسوخ ، والتاريخ المقدم والمؤخر، والمناسك وغير ذلك.

وراوى المسند المنقول المتداول اليوم بين طلاب الحديث وقارئيه كما يقول الشيخ أبوزهرة هو عبدالله بن أحمد.

أما ترتيب المسند كما رتبه عبدالله فهو أن يجمع أحاديث كل صحابى فى مكان واحد من غير نظر إلى الموضوع، فيجمع كل ما روى عن أبى بكر ويسمى مسند أبى بكر، وكل ما روى عن عمر ويسمى مسند عمر وهكذا بقية الراشدين ، والفقهاء من الصحابة كزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر وغيرهم، أن ذلك يجعل الرجوع إليه لمن يريد أحاديث موضوع معين يدرسه، ويستنبط أمراً منها غير سهل.

يقول الذهبى فى ذلك.

– لو أنه حرر ترتيب المسند وقرب وهذب لأتى بأسنى المقاصد، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه، ويبوبه، ويتكلم عن رجاله

وترتيب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى، إن شاء الله تعالى ، وقلَّ أن يثبت حديث ألا وهو فيه.

ومما يروى عن الإمام أحمد أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق إنه لابد أن يطأ امرأته الليلة.. فذهب إليها فوجدها حائضا.

فقال الإمام أحمد.

تطلق امرأته ولا يطؤها لأن الله قد أباح الطلاق، وحرم وطء الحائض.. ولم ينتشر مذهب الإمام أحمد انتشار مذاهب مالك وأبو حنيفة والشافعى، ومع ذلك فإن للرجل دوره فى الحديث.. كما أن أتباعه كانوا متشددين أكثر من اللازم، ولم يكن الإمام متشدداً، بل كان إنساناً ورعاً، وفقيهاً متعمقاً فى فهم السنة ، ولم يكن متطرفا، بل كان معتدلا لأنه على علم بصحيح الدين ، ولم يأخذ بالقشور كما أخذ بعض أتباعه فيما بعد، والذين لم يفهموا مذهب الإمام كما ينبغى الفهم.

والإمام الذى كان محبا للحديث لم يسلم من الأذى. فقد انتشرت بدعة أشعلها أحمد بن أبى دواد، وهو أن القرآن مخلوق، وقد أقنع بفكرته تلك المأمون، الذى اقتنع بها، وكان من يقول غير هذا يعذب، وينحى عن وظيفته، ولا يعود أحد إلى وظيفته إلا إذا قال أن القرآن مخلوق، وقد استغرب الناس من هذا القول، فلم يرد عن الرسول شىء من هذا، ولا من الصحابة ولا من التابعين، ولم يخض أحد منهم فى مثل هذا الحديث.. بل كان الناس يعرفون جميعاً أن القرآن هو كلام الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وما بال هذه البدعة قد ذاعت على يد المعتزلة، والذين كانوا يفسرون الأمور تفسيراً عقلياً، بينما كان الناس يعرفون أن العقل له حدود، وأن العقل يخطىء ويصيب، فما بال الحكام يغرقونه فى مثل هذه المسائل التى لا تخدم الدين، ولم يعرفها الناس قبل أن يشيع فكر الاعتزال ويشجعه المأمون وخلفاؤه من العباسيين؟

أراد البعض أن يسلم من هذه المحنة، فلجأوا إلى الهروب من هذا المأزق، مثل من قال لحاكم بغداد بشر بن الوليد الكندى عندما سأله حاكم بغداد اسحاق بن إبراهيم عن

القرآن هل هو مخلوق أم كلام الله فقال: كلام الله.. وإذا أمرنا أمير المؤمنين بأمر سمعنا وأطعنا.

ويقول خالد محمد خالد عن هذه المحنة:

.. ونعود إلى الإمام «أحمد بن حنبل» وصاحبه محمد بن نوح.

لقد صمدا فى شموخ رهيب عزيز، وأمر المأمون أن يرسلا إليه فى طرسوس، بيد أنه مات وهما فى الطريق، وخلفه المعتصم، ومات «محمد بن نوح» فى سجنه، وبقى أحمد بن حنبل فى السجن وحيداً.

ظل أربعة عشر شهرا بذلت خلالها كل محاولات الترغيب والترهيب، وهو لا يعدل عن هذه الكلمات.

- القرآن كلام الله غير مخلوق.

وحمل إلى المعتصم حيث دار هذا الحوار.

قال المعتصم: إن القرآن مخلوق.

أحمد: كلا.. أنه غير مخلوق.

المعتصم: ألم يقل الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وهل يكون الشىء مجهولاً ما لم يكن مخلوقاً؟

أحمد:

- والله كذلك يقول ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فهل معنى جعلناهم خلقناهم؟

واشترك فى الحوار أحمد بن دواد قاضى القضاة فسأل الإمام أحمد قائلاً:

- أليس الله يقول ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. والقرآن شىء؟

فأجاب أحمد: والله يقول ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهل دمرت كل شىء؟

وفى ختام الحوار وعد المعتصم أحمد بالإفراج عنه إذا هو أمسك لسانه، وخفف من حدة رأيه ومقاومته.

لكن الإمام أحمد وقد تعلقت به مسئولية الموقف وتبعاته رفض كل مادته.

وألقى ابن دواد فى روع الخليفة أن أى انتصار لأحمد سيزلزل عرش الخليفة ويعرضه للسقوط، ويجعل من الإمام أحمد زعيماً شعبياً يخشى خطره، وهكذا أمعن المعتصم فى إيذاء أحمد وأمر بجلده.

ويروى «المقريزى» أنه تعاقب على جلده مائة وخمسون جلاداً.

وتلقى الإمام الباسل وقع السياط فى صبر وجلد.

وتطورت القضية تطوراً كبيراً ، ولم يعد الإمام أحمد يدافع عن القرآن وحده، بل ويدافع عن الضمير الإنسانى ضد سلطة باغية، تريد أن تجرع ضمائر الناس عقيدتها، وتريد أن تحملهم فى دينهم على مالا يرونه حقاً.

وتظل الراية فى يمين الإمام أحمد حتى ينتصر انتصاراً عظيماً، ويتبدد خصومه واحدا بعد واحد، وتدفن الفتنة المفتعلة فى تراب الهزيمة.

لقد عذب الإمام أحمد. . كانوا يضربونه بالسياط ولا يتركونه إلا بعد أن يغمى عليه. . وظل كذلك فى سجنه نحو ثمانية وعشرين شهراً!

وقد يئسوا من أن ينصاع لهم الأمام وأفرجوا عنه، وخرج من سجنه وقد زاد الناس من احترامهم له.

وعندما تولى الموفق الحكم منع الإمام من الاجتماع بالناس وظل الحال إلى أن تولى المتوكل الخلافة، وكان يكره المعتزلة، ويكره الخوض فى هذه المسائل التى لامعنى لها ولم يتحدث فيها الصحابة، وأبعد ابن أبى دواد، وقرب إليه الإمام أحمد.

وهكذا انتهت هذه الفتنة التى عصفت بعدد من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد.

هذه صورة سريعة عن هذا الإمام الجليل الذى ترك تراثاً خالداً وبقى اسمه يتردد عبر الأجيال ونسى الناس هؤلاء الذين كانوا سوط عذاب على أفكار الناس ومعتقداتهم.

لقد ظل اسم الإمام وفقهه واجتهاداته نور هداية للناس فى كل العصور.

وظل الناس يرددون تلك الكلمة التى قالها الصديق أبو بكر، وكان يرددها دائماً الإمام أحمد إذا سمع مدحا من أحد.

«اللهم أنت أعلم منى بنفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم.

اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون، واغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون».